شحاتة هارون سلفيرة

«أنا مصرى ويهودى وماركسى، كنت ولم أزل وسأظل متمسكا بعناصر وجودى هذه، كاملة غير منقوصة، ولن أتنازل عن أى منها ولو وقف العالم كله ضدى».
شحاتة هارون

هذا الرجل الذى ذاب حبا فى تراب مصر والمصريين وظل يذوب فى هذا الحب حتى آخر نسمات حياته، وعاش يؤكد هذا الحب الثلاثى الأبعاد رغم غباوات وحماقات وإنكار كثيرين من الحمقى الذى تزخر بهم حياتنا.

ذات يوم جلست إليه لأسجل حوارا معه، وما إن لمست الجرح الغائر فى القلب حتى وقف غاضبا: «أنا مصرى وهذا عشقى، ويهودى وهذا حقى، وماركسى وهذه عقيدتى التى أعرب بها عن عشقى لمصر وعن حقى فى التمسك بديانتى ولن أتنازل أبدا عن عشقى ولا عن حقى ولا عن عقيدتى» (حوار فى ١٩٧٠/٤/٢٥).

الأسرة عاشت فى مصر أجيالا طويلة وظلت على الدوام متشددة فى تدينها، جده زكى كرايم كان يهوديا متشددا وصمم على أن يعيش شحاتة كيهودى حقيقى، فأحضر له حاخاما ليقوم بتدريس الديانة اليهودية والتوراة فى المنزل، ولكن الأب خشى على الابن من عدم إتقان اللغة العربية فيعيش فى مصر كخواجة فأحضر له شيخا معمما ليدرس له قواعد اللغة العربية، وكان فى ذات الوقت طالبا فى مدرسة الفرير بباب اللوق حيث الرهبان الكاثوليك المتزمتون، وعلى مدى سنوات ظل يحفظ التوراة ويتلقى دروس العربية على يدى شيخ معمم، ويتعلم فى مدارس كاثوليكية وكأنه يجسد العلم المصرى الجميل والقديم (الهلال والثلاث نجوم) ويمضى شحاتة مبتسما: «أنا كنت دائما أعتبر نفسى رمزا للنجوم الثلاث التى كانت ترمز للديانات السماوية الثلاث». وإلى كلية الحقوق ذهب حاملا معه عشقه للوطن والتزامه الدينى وهناك وجد نفسه فى دوامة ملتهبة من العمل

السياسى». عبد الرحمن الشرقاوى ألح عليه كى ينضم إلى «مصر الفتاة» لكن تطرفهم الدينى أبعده عنهم وبقى كما كان لفترة من الوقت يميل نحو الوفد بسبب تسامحه الدينى، وأخذ بهذه الصفة يشارك فى المظاهرات والمؤتمرات ويتحمس فى العداء للاحتلال وأحزاب الأقلية والقصر الملكى.

وفى الحوار سألته: «متى أصبحت شيوعيا؟» فقال: «أول مرة سمعت فيها كلمة شيوعى كانت عندما أحلت إلى مجلس تأديب بكلية الحقوق بسبب المشاركة فى تنظيم مظاهرة وكان معى محمد عودة وسمعت المحقق يسأل عودة: إنت وفدى؟ فأجاب بحماس: لا.. أنا شيوعى».

لكن الكلمة لم تستلفت انتباهه الذى لم يزل مغلفا بالحيرة، كان يريد أن يفعل شيئا جادا لمصر: ذهب إلى نادى المكابى «اليهودى» لكن المناخ المنغلق على اليهود وحدهم لم يعجبه. انضم إلى جمعية تسمى «عصبة مكافحة العداء للسامية» لكن هدوء الأعضاء وبرودة الكلمات لم تعجبه. حضر اجتماعا للجمعية الصهيونية «وكانت علنية» لكنه شعر بالقرف، التقى بالمصادفة ضابطا إنجليزيا اسمه «زاميث هاينز» واستمع إليه طويلا وكثيرا وهو يتحدث عن الاشتراكية والشيوعية وحقوق الفقراء، لكنه يظل متمسكا بسلبيته، وظل كذلك حتى تخرج فى كلية الحقوق وعمل محاميا، وأخيرا وجد خيط النجاة نحو اقتناع حقيقى بأن يفعل شيئا للوطن، قابله موظف يعمل مع أبيه (كان الأب بائعا فى محل شيكوريل) هو دافيد ناحوم، وكان رئيسا لنقابة عمال المحال التجارية، فتح أمامه طاقة ضوء وانبهر الفتى المحامى بالحديث عن الماركسية وعن الدفاع عن الفقراء وتحدى ظلم الرأسماليين، وقدمه ناحوم إلى هنرى كورييل وضمه كورييل إلى منظمة الحركة المصرية للتحرر الوطنى «ح.م.م». وفى هذه الحركة كان ثمة قسم للأجانب لأن بعضهم لم يكن يتكلم العربية بقدر يكفى للعمل المشترك، شحاتة رفض قسم الأجانب وعمل مع المصريين، وقبض عليه ذات ليلة فى قهوة «بج بن» بشارع سليمان باشا بتهمة عقد اجتماع شيوعى، واحتجز فى نقطة كوتسكا «شارع معروف». ضحك وكيل النيابة عندما شهد ضابط البوليس السياسى بأنه قبض عليهم (كانوا ثلاثة أحدهم كورييل) لأنهم كانوا يتهامسون خوفا من أن يسمعهم أحد وكان تهامسهم هو سبب القبض عليهم، وأفرج عنهم، لكن القبض يتوالى مرة ومرات حتى فزع الأب وسأله غاضبا: «إنت عايز تبقى وزير فى بلاد المسلمين؟» لكن

شحاتة لم يكن يريد سوى تحرير المصريين من الظلم، وهذا يكفيه ويزيد، وفى يوليو ١٩٤٦ قبض عليه فى «قضية الشيوعية الكبرى»، وخرج بعد أشهر، ثم قبض عليه مرة أخرى فى عام ١٩٤٨ عندما أعلنت الأحكام العرفية بسبب حرب فلسطين، وظل فى المعتقل حتى قدوم حكومة الوفد عام ١٩٥٠ وإغلاق المعتقلات.

لكن اشتعال حرب فلسطين كان بداية معاناة حقيقية لكل اليهود المصريين. الكثيرون منهم هاجروا لكنه بقى مصمما على حقه المثلث الأضلاع «مصرى – يهودى – شيوعى» زوجته الجميلة والوفية مارسيل، الفرنسية الجنسية، كانت تسانده وتحمى ظهره. السفارة الفرنسية عرضت عليها أن تقوم بتسفيرها هى والأولاد إلى فرنسا ثم تعطى الفرصة لشحاتة كى يلحق بهم، لكنها رفضت، فشحاتة لن يترك مصر، وهى أيضا معه.

وكانت معاناة حقيقية أن تنظر إليك العيون فى تساؤل: لماذا بقى هذا الرجل ولم يهاجر مثل آلاف غيره؟ وشحاتة لا يغضب، فهم لا يعرفون قيمة العشق للوطن، وذات يوم عادت الابنة ماجدة إلى البيت باكية كانت فى السنة الأولى – إعدادى، وفوجئت بمدرسة التربية الاجتماعية تقول «اليهود فى المنطقة معزولين زى الكلب الجربان»، ذهب بها شحاتة إلى المدرسة وجلس ليشرح للمدرسات وللناظرة الفارق بين «اليهودية» «الديانة» – وبين «إسرائيل» «الدولة المعتدية» وبين «الصهيونية» «السياسة العنصرية» وأعلن أن «البنت مش هتدخل الفصل إلا إذا اعتذرت لها المدرسة أمام التلاميذ»، واعتذرت لها المدرسة، وكان شحاتة يعلم أولاده كل يوم «احترموا أنفسكم يحترمكم الناس، أحبوا مصر يحبكم الناس».

وفى عام ١٩٥٦ وعلى أثر العدوان الثلاثى يوضع مكتبه تحت الحراسة ويعتقل هو، لكنه يعتقل هذه المرة كيهودى وليس كشيوعى فرفاقه كانوا هناك فى بورسعيد يحاربون العدوان، الجرح هذه المرة كان غائرا، فهو على استعداد أن يقبض عليه ألف مرة كشيوعى ولكن القبض عليه كيهودى خلال عدوان إسرائيلى يعنى الشك فى وطنيته، وهذا ما لا يقبله، فوجه من المعتقل رسالة صاخبة وغاضبة إلى عبد الناصر، وأفرج عنه. وفى ١٩٦٧ وعندما تندلع الحرب مرة أخرى يطلب إلى نقابة المحامين أن ينضم إلى كتيبة المحامين التى كانت تتدرب للذهاب للجبهة، لكنه يقبض عليه، ويكون القبض عليه هذه المرة شديد القسوة ويعامل معاملة غير مسبوقة، وعرف السبب، فقد استبق شحاتة أحداث العدوان

بعدة أشهر وردا على خطاب عبد الناصر فى عيد الوحدة فى ٢٨ فبراير ١٩٦٧ وجه شحاتة إليه رسالة مطولة وغاضبة عدد فيها مظاهر التمييز ضد اليهود المصريين دونما نظر لمصريتهم، ولا لولائهم لمصر وحرصهم على البقاء رفضا للسفر لإسرائيل، وكانت لهجة الرسالة واضحة وشجاعة ولهذا اعتقل يوم ٥ يونيو وعومل معاملة شديدة القسوة.

فماذا قال شحاتة فى رسالته لعبد الناصر؟

* * *

«أنا يهودى ضد الصهيونية، تماما كما تكون مسلما وضد الإخوان المسلمين. والصهاينة يعتبروننى خائنا، وأنا مصمم على البقاء فى مصر حتى ولو قطعوا رقبتى على أرضها».

شحاتة هارون

سألنا ماذا أغضب عبد الناصر فى رسالة شحاتة هارون التى أرسلها له فى فبراير ١٩٦٧؟ والإجابة تكمن فى نصوصها، فالرسالة تبدأ: «فى إطار الصيغة الجديدة المطروحة اليوم على منطقتنا فى فهم المعركة الدائرة بين الاستعمار والرجعية والعنصرية الإسرائيلية من جهة، وبين القوى الثورية من الجهة المقابلة، فإنه ما من شك فى أن للتقدميين من اليهود دورهم الإيجابى ومكانهم فى صفوف القوى الثورية، وهؤلاء لا بد من ضمهم صراحة إلى باقى القوى الثورية لمساعدتهم على تعبئة الجماهير اليهودية فى العالم لتقف معنا فى معركة التحرير والديمقراطية والاشتراكية»، وتمضى الرسالة: «فمنذ عام ١٩٤٨ والحكومات العربية تسلك نحو مواطنيها من اليهود سلوكا دفعهم إلى الهجرة بما أدى إلى مد دولة إسرائيل بحوالى ٦٠٪ من عتادها البشرى». ويمضى شحاتة فى رسالته: «ويبقى الحال إلى الآن كما هو برغم التحولات الثورية الجذرية فى بعض الدول العربية مما أسبغ على حكوماتها التقدمية شبهة أو ظلالا من العنصرية تتناقض تناقضا صارخا مع ما تعتنقه من مبادئ اشتراكية علمية، والحقيقة أنه إذا لم يكن ثمة مبرر لهذا السلوك فى بداية الأمر فإن استمراره مع اشتراكيتنا اليوم أصبح تبريره صعبا بل مستحيلا»، ثم يسأل: «كيف يمكننى وأنا المولع بثورتنا والمقدر عن وعى صادق وعميق للدور التاريخى والخلاق الذى يلعبه عبد الناصر أن أبرر لغيرى من اليهود هنا وفى العالم أسلوب التعامل مع اليهود المصريين»، «فأنا وغيرى

محرومون من أداء الخدمة العسكرية، ومحرومون من حق العمل فى المؤسسات العامة، ومحرومون من مغادرة البلاد لأى فترة إلا بعد التنازل عن الجنسية المصرية أو عن حق الإقامة فى مصر»، وتمضى الرسالة لتسرد عناصر التمييز ضد اليهود المصريين ثم تسأل «:كيف يمكن التوفيق بين ما يعلن وما يقال وبين ما يجرى فعلا وعملا، مثل تلك التدابير الخفية وغير الخفية التى تحز فى النفس وتغضب وتؤلم وتذل». وكان طبيعيا أن يغضب عبد الناصر من هذه الجرأة، وكانت المعاملة الشديدة القسوة له شخصيا عقب اعتقاله فى ٥ يونيو ١٩٦٧ لكنه يظل متمسكا بحقه ورؤيته، وفى المعتقل ظل يؤكد لمن حققوا معه فى أسباب توجيهه لهذه الرسالة إلى الرئيس وقال لهم: «إن وحدة القوى الثورية لا تحتمل أى استثناء أو أى إقصاء لجزء من تلك القوى الثورية يكون مرده إلى اختلاف فى الأصل أو الدين»، ويظل شحاتة فى معركته المتصلة فيتقدم بطلب لنقابة المحامين لقيده فى جدول المحامين أمام محكمة النقض، وترفض النقابة لأنه «يهودى» ويرسل شحاتة برقية لعبد الناصر ويقول: «رفضت النقابة طلبى لأننى يهودى وليس هذا جرما مانعا» وترضخ النقابة بعد معركة طويلة.

وبعد حرب أكتوبر يعلن شحاتة هارون على صفحات مجلة «الطليعة» ابتهاجه قائلا: «لقد قضى العبور نهائيا، وبما لا رجعة فيه على أسطورة أن إسرائيل دولة لا تقهر»، ويفسر شحاتة فى مقاله سر مساندة أمريكا لإسرائيل بأن أمريكا تتخذ من إسرائيل أداة ردع لحماية المصالح الأمريكية الاقتصادية والبترولية فى المنطقة، فإذا صفيت هذه المصالح لم يتبق لأمريكا سبب لمساندة إسرائيل، ويمضى المقال مطالبا بوقفة عربية معادية لأمريكا وإسرائيل معا (الطليعة – أكتوبر ١٩٧٤).

وفى يناير ١٩٧٥ وعقب مظاهرات صاخبة طالب فيها العمال بالخبز قبض عليه، وتزف الصحف الحكومية النبأ فى بهجة متهمة إياه بأنه كان بين المتظاهرين محرضا لهم.. بينما قبض عليه فى بيته. وبعد أن يفرج عنه يجرى معه صلاح حافظ حوارا (روزاليوسف – ٢ مارس ١٩٧٥) يقول فيه شحاتة كلمات موحية: «نعم أنا يهودى، نعم أنا يسارى، لكن الصفة الأهم هى أننى مصرى، وفى حدود معلوماتى أنه لا يشترط لكى أكون مصريا أن أغير ديانتى ولا أن أغير معتقداتى السياسية، ولا توجد جهة فى الدولة لا تعرف جهودى فى الحرب ضد الصهيونية سواء هنا أو فى خارج البلاد».

وعندما تكون كامب ديفيد يعلو صوت شحاتة هارون رفضا لها، مؤكدا: «اتفاقيات

كامب ديفيد ليست فى رأيى سوى سلام أمريكى بشروط المؤسسة الصهيونية الحاكمة فى إسرائيل وبالتالى فإنها فى اعتقادى ضد مصالح الشعبين الإسرائيلى والفلسطينى». (القبس الكويتية – أكتوبر ١٩٨٠).

نحن إزاء رجل أسطورى يذكرنا بالبطل الإغريقى الأسطورى سيزيف لكنه لا يحمل صخرة واحدة وإنما ثلاثاً عشقه لمصر والتزامه الدينى وتمسكه بمعتقده، ورغم صعوبة المرتقى واصل معركته بلا كلل، وفى ١٠ يناير ١٩٧٦ وجه برقية إلى الرئيس السادات يطالب فيها «بإلغاء كل الإجراءات والقرارات – السرى منها والعلنى – التى تفرق فى المعاملة بين اليهود وغيرهم من المواطنين، وأن يضع حدا للمقالات والأحاديث الإذاعية والتليفزيونية التى تحقر الدين اليهودى» قائلا: «إن يهود مصر جزء منها وكرامتهم من كرامتها، وآمالهم من آمالها مهما ادعى السفهاء والمغرضون». ويغضب السادات، لكن الرجل اعتاد على غضب الرؤساء منه.

وعندما تأسس منبر اليسار فى أبريل ١٩٧٦ أتى شحاتة هارون فى اليوم الأول ليقدم طلب الانضمام.. وليواصل رحلته معنا حتى يصبح عضوا فى اللجنة المركزية للحزب.

وفى ١٩٧٩ وإثر التوقيع على اتفاقية السلام ومعاهدة الصلح مع إسرائيل حضر إيجال يادين، نائب رئيس وزراء إسرائيل، وذهب للصلاة فى المعبد اليهودى بشارع عدلى، وذهب شحاتة، ونستمع إلى حكايته هناك: «وبعد تفتيش دقيق وخشن دخلت المعبد وتقدمت مباشرة إلى إيجال يادين وقلت له بصوت مرتفع إنى كمصرى أرى أن هذه المعاهدة مهينة لكرامة الشعب المصرى. والتف حولى حراس مصريون وإسرائيليون ومنعونى من الصلاة واقتادونى خارج المعبد». ويدفع شحاتة الثمن فبعد فترة وجيزة يقبض عليه مجددا.

ويبقى نضال شحاتة هارون متواصلا ليذكرنى ببيت الشعر القائل:

أرى العنقاء تكبر أن تصادا

فعاند ما استطعت له عنادا

يعاند الصهيونية والعنصرية ويتمسك بمصريته وعشقه لوطنه وشعبه.. يتمسك بذلك كله حيا وميتا، وعندما يرحل يكون قد أوصى بألا يصلى عليه حاخام قادم من إسرائيل «وهو ما يحدث مع كل من يتوفى من اليهود المتبقين فى مصر»، وينتظر شحاتة حتى يحضر حاخام من فرنسا.. وبذلك يرقد مستريحا، بعد أن سجل وفى آخر نفس من أنفاسه عداءه لإسرائيل وللصهيونية.